سيميائيّة اللّون في القرآن الكريم

دراسة وصفيّة تحليليّة

الأستاذ:هارون مجيد

جامعة الشلف ـ الجزائر

إنّ دراسة التّخفِّي اللّوني في القرآن تسوقنا إلى دراسة سيميولوجية اللّون في اللّغة العربية، ومنه الإلمام بالمفاهيم الأوليّة لهذا العلم اِنطلاقا من الكشف عن دلالة الألوان المتضمّنة في ألفاظ مقنّعة تمثّل وجهاً من أوجه الإعجاز الربّاني، فعمدنا إلى اِستخلاص أصداف من الكلمات المنتقاة من لدن القرآن الكريم عن طريق اِستجلاء جوهرها وإجلاء لؤلئها ككلمة: مدهامّتان،الدّهان،أحوى...،كما سَلّطنا النّظرة السّيميائية على ألفاظ تُوحي إلى الجمال الّذي يقودنا بدوره إلى الألوان كالبهجة،الزّينة والزّخرف...،فبهرنا تنوّع الدّلالات اللّونية بين إيجابيّة وسلبيّة تبعاً للسّياق الذي وردت فيه كالنّور والظّلام. فكلّ منهما اِحتضن دلالته الأصليّة التي يتفرّد بها؛ فالنّور له دلالته الإيجابيّة، والظّلام له دلالته السّلبية التي تحمل معها بعض الألوان ضمنيّا.

Résumé : L'étude de la chromatographie furtive dans le Saint Coran, nous mène à faire une étude sémiologique de la couleur dans la langue arabe et de la connaissance des concepts préliminaires de cette science. En partant de la signification des couleurs contenues dans des mots convaincants qui représentent un aspect du miracle du Seigneur, nous avons pris la résolution d'extraire quelques mots du Saint Coran à travers l'élucidation de leur essence. Exemple : modhamatan" مدهمتان " eddihan "الدهان"Ahwa ." أحوى " en plus, nous avons essayé d'analyser sémiotiquement certains mots qui suggèrent la beauté, qui à son tour entraîne l'enthousiasme, l'ornement, et la décoration…Nous étions éblouis par la diversité des connotations chromatiques positives et négatives selon le contexte dans lequel elles se trouvent, comme (la lumière et l'obscurité). Chacun de ces deux contextes étreint sa signification originale. Alors, la lumière a une signification positive, tandis que l'obscurité a une signification négative qui porte implicitement d'autres couleurs.

.

تمهيد: القرآن كتاب عزيز وكنز إبريز معجز للإنسان واللّسان، فيه تنصب كلّ الأسرار وتتمحور جلّ الأقدار فيه تاريخ ما قبلنا وسيرة ما بعدنا،"فهو كتاب الكون والكون صفحته الواسعة، فكلّ ما يحتويه الكون معروض في القرآن بآفاقه وأنواعه وأجناسه وأقسامه وكليّاته، وحركته الدّائبـة، وحوادثه المتكرّرة؛ فإذا كان في الكون أشياء وأشياء ما تزال مجهولة لا تعرف عنها العقول والأفكـار ولا يعرف عنها العلم ولا نظريات العلم التي تتزاولها العقول والأفكار شيئاً حتى اليوم، فلِمَ لا يكون الأمر كذلك بالنسبة إلى القرآن كتاب الكون ؟ "[1] .

هذا تساؤل مهمّ بالنسبة لدارس القرآن، فحتى الآن لا تزال كثير من الأمور غامضة غير بادية للعيان تختفي وتتوارى بين طيات القرآن؛ فلِم لا تكون الألوان من هذه الأسرار التي لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى؟ إذْ ورد ذكرها في أكثر من موضع في كتابه العزيز، فمن بديع خلقه عزّ وجل أنّ جعل للإنسان كلّ ما يبهج قلبه ويسرّ ناظره ولا يكون هذا إلاّ إذا حُلِّيَ كلّ ذلك بالألوان، ألوان الطّبيعة وألوان الرّوح البشريّة. فإنْ لمْ يكن للإنسان ذوق وحسّ بما حوله لا يستطيع التدبّر في ملكوت الله فبدون لون لا تكون بهجة، كما أنّ الطرب لا يكون بدون لحن، فزخْرَفَ الله للإنسان الكون كلّه جباله وَوِهَادَهُ، طيوره وأزهاره، ماءه وسماءه مراعاة لمختلجاته وراحته النّفسية حتى يعزف سيمفونيّة اللّون الدّال على الجمال في كلّ زمان ومكان من ربوع هذا الكون، فلا حياة بدون لون ولا لون بدون حياة، فباختلاف أنواعه وتفاريعه يعدّ آية من آيات الخلق في هذا الوجود، وبتعدّده تعدّدت تعريفات **مادة اللّون** أو بالأحرى **لفظ اللّون** وأُولى التّعريفات التي صادفتنا هي حديث **ابن الجزري** في **باب الألوان** عن ماهية اللّون فـ"اللّون هيئة كالسّواد والبياض وما يتركّب بينهما ويجمع،...إن الألوان الأصليّة خمسة وهي البياض والسّواد والحمرة والصفرة والخضرة، وأمّا الألوان الفرعيّة المركّب بعضها من بعض فهي ما عدا ذلك "[2]؛لكنّه يتحدّد اِصطلاحاً على"أنّه خاصّة ضوئيّة تعتمد على طول الموجة، ويتوقّف اللّون الظّاهر للجسم على طول موجة الضوء الذي يعكسه، فالجسم الذي يعكس كلّ الموجات يبدو لونه أبيض والذي لا يعكس أيّ موجة يبدو أسود، وقد ذكر الرّأي الذي **يقول**:إنّ الألوان كلّها إنّما هي من السّواد والبياض، وإنّما تختلفان على قدر

المزاج. ثم وقف عند القول الذي **يقول** بالقوة للسّواد على البياض،إذ أنّ الألوان كلّها كلّما إشتدّت قَرُبت من السّواد وبعدت عن البياض، فلا تزال كذلك إلى أنْ تصير سواد ومعنى هذا أنّ الكلام في فلسفة الألوان كان قضيّة من قضايا الفكر عند المتكلّمين المسلمين من وقت بعيد "[3].ويرى **أرسطو** أنّ الألوان ربّما تتواءم كما تتواءم الأنغام بسبب تنسيقها المبهج.وهذا التّنسيق المبهج هو الذي يعنيه المحدثون بانسجام الألوان" [4].ويمكن إعتبار اللّون كلفظ كالهيئة وكذلك النّوع **ويُقال**:إنّ فلان يتلوّن كما تتلوّن الحرباء؛أيْ أنّه لا يثبت على خلق واحد وحال واحدة.ومن مميّزات الألوان نذكر:

أوّلاً: النّقبة: وهي الخاصيّة التي تعطي لوناً ما إسمه(أحمر، أخضر، أزرق...إلخ).

ثانياً: الإضاءة: وهي مقياس لكميّة الضّوء المنعكس من جسم ملوّن .

ثالثاً: كثافة اللّون: وهي مقياس التشبّع والتّركيز لِلَونٍ ما من حيث المزج والخلط. فمن هذه التّعريفات البسيطة والآراء المختلفة حول اللّون بدأت الغمامة التي تحجب كُنْه اللّون تنقشع شيئاً فشيئاً،وبَدَتْ لنا ظواهر أخرى مميّزة له. ففي الجانب النّفسي مثلاً يعتمد على اللّون في دراسة الشّخصيات، وكذا التّأثيرات النّفسية التي تنتاب الإنسان. وللتّدليل على فكرتنا هذه سنبيّن سميائيّة كلّ لون من الألوان الشّائعة والتي ستصادفنا في معرض بحثنا، "**فالأبيض**:رمز الطّهارة والنّقاء والصدق وهو يمثّل (**نعم**) في مقابل (**لا**) الموجودة في الأسود، إنّه الصّفحة البيضاء التي ستكتب عليها القصّة، إنّه أحد الطّرفين المتقابِلَيْنِ، إنّه يمثّل **البداية** في مقابل **النّهاية** و **الألف** في مقابل **الياء**. **أمّا الأسود** : فهو رمز الحزن والألم والموت، كما أنّه رمز الخوف من المجهول، والميـل إلى التكتّم ولونه سِلبُ اللّون الأبيض فهو يدلّ على العدميّة والفناء "[5].

أمّابالنسبة للّون"**الأخضر** فيرتبط بمعاني الدّفاع والمحافظة على النّفس فهو إلى السلبيّة أقرب منه إلى الإيجابيّة،كما أنّه يمثّل التجدّد والنموّ والأيّام الحافلة للشبّان الأغرار، إنّه لون الطّبيعة الخصبة رغم أنّه نادراً ما يكون اللّون المسيطر في الجوّ"[6].لكنّ "**اللّون الأزرق** مرتبط بظلام اللّيل بسبب الخمول والهدوء ويرتبط بالطّاعة والولاء والابتهال، وأمّا **اللّون الأصفر** لصلته بالبياض

وضوء النّهار اِرتبط بالتحفّز والتهيّؤ للنّشاط وهو رمز الغيرة **واللّون الأحمر** يثير النّظـام الفيزيقي نحو الهجوم والغـزو والعاطفة والرّغبة الباديّة وهو رمز الحبّ والشّجاعـة والثـّأر"[7].

من هذه الدّلالات تظهر **النّظرة النّفسية** بادية واضحة للعيان. فحتى الأطبّاء طوّعوا الألوان لأغراض علاجيّة "فتمكّن لفيف من المتخصّصين من اِبتكار طريقة لتحديد الألوان التي توافق كلّ شخص، فقد ظهر أنّ لكلّ اِمرئٍ ألواناً خاصّة تثيره وأخرى تهدّئه وتبهجه، كما ظهر أنّ النّاس يختلفون اِختلافا كبيراً في درجة حساسيتهم وتأثّرهم بالألوان...فبعض أنواع الصّداع مثلا يمكن التخلّص منها بتعريض المريض للأضواء الزّرقاء أو البنفسجية، وأنّ الأحمر يحسّن حالات ضغط الدّم المنخفض بينما يفيد الأزرق الفاتح والأخضر في حالات ضغط الدّم العالي"[8]، وهذه الأمور التي أوردناها في هذا المدخل تساعد و لوْ جزئيّاً على إيضاح الحقائق المتعلّقـة باللّـون، وكذا المجالات التي تناولته بالدّرس كمجال **علم النفس**. ولا تقتصر الدّراسة على علم النّفس فقط بل تتعداه إلى دراسات أخرى مثل **السيميائيّات** التي سنتعرّف عليها بإطلالة سريعة وشاملة.

سيميائيّة اللّون : بعد أن ضبطنا بنات أفكارنا فيما سبق وانبجست منهما معلومات كثيرة أهمّها دلالة الألوان عموما نخوض الآن مغامرةً سيميولوجيّة تختلف عمّا ذُكر آنفا، وهي دراسة التّخفّي اللّوني في القرآن. وتعتبر دراسة سيميولوجية اللّون في القرآن الكريم لُبَّ اللُّب، وحَبَّةَ القَلْب، ونتقصّد فيما بعد الإلمام بالمفاهيم الأوّلية لهذا العلم. فمغامرتنا هذه محفوفة بالمطبّات والعقد والصِّعاب، إلاّ أنّنا اِرتأينا أنْ نجتهد ولو بالقليل للكشف عن دلالة الألوان الضّمنية التي تقابلنا في ألفاظ مقنّعة تفرض علينا رفع الحِجاب عنها لمعرفة كُنْهِهَا رغم صعوبة الأمر؛ لأنّنا نتعامل مع الكتاب المقدّس الّذي لا يمكن أنْ نَبْنِي على ألفاظه اِفتراضات متناثرة الدّلالة، فالألوان الضِّمنية فيه تمثّل وجهاً من أوجه الإعجاز. ويحتاج المفسّر في تعامله مع القرآن إلى رسوخ في العلم ودراية وبصيرة ثاقبة ذلك **لقول الله سبحانه وتعالى**: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ

رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ سورة آل عمران، الآية(07). "ومن ضمن إعجاز القرآن الكريم أن تجد للآية الواحدة أكثر من وجه من أوجه الإعجاز،فالآية الواحدة وَجد فيها **الأدباء** الفصاحة والبلاغة، ووَجد فيها **المشرّعون** العدل والكفاية، ووَجد فيها **العلميّون** حقائق لمْ يعرفها البشر إلاّ في عصر العلم"[9]، والشّيء الذي نلمسه في الإعجاز اللّوني هو تواريه في دفّات القرآن وقبل أنْ نتناول آيات قرآنية عن اللّون الضِّمني من لَدُنِ السُّوَر التي وقعت أعيننا عليها لنحلّلها ونتقصّىٰ المبتغىٰ من ورائها، إرتأينا أنْ نلقي نظرة خاطفة وسريعة نكتفي فيها بالمفاهيم العامّة لـــ(**علم السّيمياء**) قصد تمهيد الطّريق وإظهار خيوط البدايات الأولىٰ لهذا العُنْصُر اللَّوني.

السّيميولوجيا ونشأتها: إنّ علم السّيمياء متشعبٌ تشعّب الحياة،"فهو العلم الذي يدرس الأدلّة، أوهو علم نظام العلامات وتكوينيّاً الكلمة (**السّيميولوجيا**) آتية من الأصل اليوناني (**semion**) الذي يعني علامة و(**logos**) الذي يعني خطاباً هكذا يصبح تعريف السّيميولوجيا علىٰ النّحو الآتي **علم العلامات**"[10]. إلاّ أنّ الاهتمام الحقيقي بهذا العلم كان بفضل العالم اللّساني السّويسري (**فردناند دي سوسير**) إذ حدّد أنّه"يمكن إذاً أن نتصوّر علماً يدرس حياة الدّلائل داخل الحياة الاجتماعيّة، علماً قد يشكّل فرعاً من علم النّفس الاجتماعي ومن ثمّ علم النّفس العام وسوف نسمّي هذا العلم بالسّيميولوجيا "[11]. وبهذا فدراسة السّيميولوجيا لمْ تقتصر علىٰ أولئك الروّاد فحسب بل هناك أسماء أخرىٰ لمعت في سماء الحقل السّيميولوجي. والآن ننتقل إلىٰ **نظرة العرب إلى السّيميائية** "فمصطلح السّيميائية من أصل عربي، وإنّ أوّل ظهور للمصطلح في مساقات مخطوطة تنسب **لابن سينا** فيها فصل تحت عنوان**علم السّيمياء** باعتباره ممارسة معرفيّة علىٰ المعادن، كما ورد فصل يحمل عنوان **علم السّيمياء** عند مخطوط كتبه **محمّد شاه بن المولى شمس الدّين الفناوي** يلتقطه في صلب ثنائية الحلال والحرام، كما ورد في مقدمة **ابن خلدون** تسمية **السّيمياء** ويقصد به علم أسرار الحروف"[12]. ومن خلال ما قدّمناه يمكن أنّ نلاحظ أنّ "السّيميائية في النّصوص التّراثية تحمل مفاهيم متنوّعة تقترن تارة بالعلامات وحروف الهجاء وتلتصق تارة أخرىٰ بالكيمياء، وترتبط في أغلب الأحيان بالممارسة الطبّية والسّحرية"[13]، وكما كان مصبّ إهتمام العرب أيضاً بهذا المصطلح

راجع إلى وروده في القرآن الكريم. فأتوا به كحجّة ودليل وهو مانلمسه في **قوله تعالى**[14]: ﴿إن فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ﴾، **وقوله تعالى**[15]:﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾، فظهرت بذلك ترجمات مختلفة لهذا العلم لدى العرب، فأطلقوا عليه إسم علم الدّلالة، علم العلامات، علم الإشارات، علم الرّموز، علم السّيمياء، علم السّيميوطيقا...إلخ. ولعلّ تعدّد هذا المصطلح يعود إلى تشتّت مفاهيمه والتّسميات التي أطلقت عليه راجعة إلى إستنباطها من مضمون الدّراسة، فمصطلح السّيميائية جذوره ضاربة في القدم.

من خلال هذه اللّمحة نجد أنّه سُلّطت عليه قراءات جمّة وحاقت به تعريفات متباينة، والشّيء الذي نبتغيه من هذه الدّراسة السّيميولوجية هنا هو الاستفادة منها كعلم، ذلك لأنّها تخدم بحثنا هذا. فالوسط الذي نعيش فيه مليء بالعلامات التي تكتسحها الألوان، إذ إندمجت الألوان في السّلوك الحضاري المعاصر "فأصبحت تكتسي دلالات وتشكّل خطباً تفهم، كما تفهم الخطب الطّبيعية مثل: الأحمر الذي يدلّ على الخطر، والأسود الذي يدلّ على الحزن، والأبيض الذي يدلّ على السّلام، والأخضر الذي يدل على الأمن والأصفر الذي يدعو في قانون المرور إلى الحذر والحيطة، فاللّون إذن في الذّهنية المعاصرة للإنسان لم يعد مجرّد لَطخَةٍ من الصّبغ توضع على ثوبٍ أو قرطاس"[16]. وإنّما أصبح كلُّ لون يرمز إلى **سيميائيّة** أو إلى **عالم من الرّموز**، ههنا نلفي عنصر اللّون يلعب دوراً فاعلاً في الحياة اليومية، ودُرِّس في كثيرٍ من المجالات على أنّه علامة؛ لأنّه يوحي بدلالات متنوّعة وذلك حسب الموضع الذي يقتضيه، فاتّسعت مجالاته في الحقل السّيميولوجي، وتعدّدت دلالاته ووظائفه. فإذا نظرنا إليه بغضّ النّظر على أنّه لون نجده ينوّه ويوحي بأبعاد خفيّة لاتعلم من أوّل وهلة، فتقرأ من خلاله الصّورة وصُوَرُ القراءة. أيّ أنّنا نقرأ اللّفظ ثم نتحرّى سيميائيّته (نقرأ ما وراء الصّورة –صورة الملفوظ اللّوني–)، بهذا اتّضحت لنا بعض المسالك **السّيميائية** التي نُسَيِّر من خلالها رحلتنا اللّونية في القرآن الكريم .

سبق التعرّف على **الألوان الظّاهرة** في القرآن الكريم فهي محصورة وتعدّ على الأصابع، وفي مقابل هذا نجد **الألوان الخفيّة** غزت آيات القرآن الكريم أيضاً فهي كثيرة وغير باديّة للعيان، ولكثرتها حبّذنا أنْ نقطف بعضاً منها من خلال **النّماذج القرآنية الآتية** :

أوّلاً: قوله تعالى[17]: ﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴾. إنّ هذه الآية الماثلة بين أيدينا والتي اقتطفنا منها لفظة – **الدِّهَانِ**– لانستطيع تقصّي دلالتها من غير الاستعانة بكتب التّفسير. والمُستشَفّ أنّ هذه اللّفظة التي تحيلنا إلى اللّون جاءت في سياق الحديث عن هول القيامة. والتّفسير الآتي سيوضّح لنا كُنْه الآية لنتقصّى عبره دالّ ومدلول كلمة – الدِّهَانِ– " فقوله تعالى :(فإذا اِنشقّت السّماء) أيْ انصدعت يوم القيامة (فكانت وردة كالدّهان).(الدّهان) الدُّهن... والمعنى أنّها صارت في صفاء الدّهن... والمعنى فكانت حمراء، وقيل المعنى تصير في حمرة الورد وجريان الدّهن؛ أيْ تذوب مع الانشقاق حتى تصير حمراء من حرارة نار جهنّم وتصير مثل الدّهن لرقّتها وذوبانها وقيل الدّهان الجلد الأحمر الصّرف...أيْ تصير السّماء حمراء كالأديم من شدّة حرّ النّار...يقال: المعنى فكانت الفرس الورد يقال للكميت ورد إذا كان يتلون بألوان مختلفة. قال **ابن عبّاس** الفرس الورد في الربيع كميت أصفـر وفي أوّل الشتاء كميت أحمر فإذا اشتدّ الشّتاء كان كميتاً أغبر...فشبّه تلوّن السّماء بتلوّن الورد من الخيل وزعم المتقدّمون أنّ لون السّماء الحمرة وأنّها لكثرة الحوائل وبعد المسافة ترى بهذا اللّون الأزرق.إنّ السّماء لقربها من النّواظر يوم القيامة وارتفاع الحواجر تُرى حمراء لأنّه أصل لونها والله أعلم"[18]. وكما هو ملاحظ فالملفوظ – الدِّهَانِ– يحيلنا بطريقة غير مباشرة إلى معرفة المقصود منه وهو اللّـون **الأحمر بالذّات**، فمن يقرأ الملفوظ لأوّل وهلة لا يعلم مرماه إلاّ إذا تدبّره وتمعّنه في إطار السّياق الذي ورد فيه، فالدّهان تمثّل لنا علامة ويتفرّع منها ما يعرف بالدّال والمدلول وهذا الموضّح آنفاً .

ثانيـاً: قوله تعالى[19]: ﴿مُدْهَآمَّتَان ﴾ إنّ هذه الآية الكريمة تعجزنا وتجعلنا مبهوتين مشدوهين لها، فهي أقصر آيةٍ في القرآن الكريم وجاءت في سياق الحديث عن الجنّة ونعيمها ووصف رياض قصورها وهذه الآية تعتبر أقصر طريق إلى الجنّة. كما قال **أبو عمروالداني**[20]:"لا أعلم كلمة

هي وحدها آية إلاّ قوله (مُدْهَآمَّتَانِ) في **سورة الرّحمن** وهي لغة القرآن"، فهذا الدّال– **مُدْهَآمَّتَانِ**– يحمل في جعبته مدلولاً وهو الخضرة الضّاربة إلى السّواد، وهذا ما اِتّفق عليه جلّ المفسرين، **كالقرطبي والطّبري وابن كثير...**" **فقوله تعالى**:(مدهامّتان) أيٌ خضراوان من شدّة الخضرة من الريّ، **والعرب** تقول لكلّ أخضر أسود، وقال **لبيد** يرثي قتلى هوزان: **وجاءوا به في هودج ووراءه***ثمّ كتائب خضر في نسيج السِنَّور"[21].

فـــ(مدهامّتان) تمثّل لنا علامة دالّها هو الملفوظ نفسه، ومدلولها شدّة الخضرة التي تميـل إلى السّـواد والجمع بين الدّال والمدلول يشكّل لنا علامة بناءً على السّياق الذي وردت فيه اللّفظة .

ثالثـاً: **قوله تعالى**[22]: ﴿وُجُوه يَوْمَئِذ بَاسِرَةٌ﴾. لعلّ هذه الآية تذكّرنا لأوّل وهلة لدى قراءتنا لها بآيةٍ أخرى في **قوله تعالى**: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ سورة آل عمران،الآية(106). ووجْهُ الشّبه بين الآيتين هو أنّهما جاءتا في سياقٍ واحد ألاَ وهو بيان عاقبة المتّقين والكافرين، فوصفت الآية الثانية الوجوه بالبياض صراحةً بينما الآية الأولى الممثّلة مقصد حديثنا نستشف اللّون فيها ضمنياً " وهذه وجوه الكفّار تكون يوم القيامة باسرة قال **قتادة** كالحة وقال **السّدي** تغير ألوانها... أيٌ عابسة "[23]، فنلمس من خلال هذا التّفسير إيقونية الكلمة–باسرة– والبُسُور صفة من صفات اللّون. وبهذا اِلتقطنا المدلول الحقيقي لهذه الكلمة أو بالأحرى قاربناه وخدَمنا السّياق الذي وردت فيه فأحالنا الملفوظ إلى اللّون ضمنياً (سيميائية اللّون) .

رابعـاً: **قوله تعالى**[24]:﴿ وُجُوه يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴾. جاءت هذه الآية الكريمة كقرينة لسابقتها إذ وردتا في نفس السّياق وهو الحديث عن صفة من صفات الوجه مُنعكسةً على ما قاموا به من عمل فيجازى كلٌّ حسب عمله، فالمؤمن يَسْفُرُ وجهه والكافر يَبْسُرُ وجهه" **فقوله تعالى**: (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ) أيٌ مشرقة مضيئة وهي وجوه المؤمنين الذين قد رضي الله عنهم. ويقال أسفر وجه فلان إذا حسن ومنه أسفر الصّبح إذا أضاء وكلّ مضيءٍ فهو مسفر... ومسفرة مشرقة"[25].

لعلّ دلالة كلمة (مُسفرة) أبعد ممّا نتصوّر ففي التّفسير قيل أنّها مشرقة مضيئة، فبما أنّها مضيئة فهي

تحيلنا إلى النّور وهو لون البياض؛ لأنّ البياض هو رمز الإشراق والبِشر كما في **قوله تعالى**[26] : ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾. إذاً فمؤشّرية الكلمة تحيلنا إلى البياض .

خامساً: **قوله تعالى**[27]:﴿ وَوُجُوه يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٌ تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾. على نفس الوتيرة وفي نفس السّياق تصادفنا هذه الآية والتي تصف لنا وجوه الكُفّار ولكن بألفاظ مغايرة فقد جاء في تفسيرها "...غبرة أيّ غبار ودخان، ترهقها تغشاها قترة أي كسوف وسواد... والقتر في كلام العرب الغبار...وقال **زيد بن أسلم** القُتْرة ما اِرتفعت إلى السّماء، والغُبْرة ما اِنحطّت إلى الأرض والغبار والغُبرة واحدة"[28]. ويقول **الفرزدق**[29]: **"متوّج برداء الملك يتبعه ثمّ ***موج ترى فوقه الرّايات والقَتَرا"**

وعبر هذا التّفسير يتبيّن لنا الدّال مع مدلوله، تجمعهما إيقونيّة واحدة فالعلامة منقسمة فالدّال بملفوظه (قَتَرة) ومدلوله (السّواد)، إنّ معاني القرآن أسمى المعاني فهي ترد في" ألفاظٍ إذا اِشتدّت فأمواج البحار الزّاخرة، وإذا هي لانت فأنفاس الحياة الآخرة، تَذْكُرُ الدُّنيا فمنها عمادها ونظامها وتصف الآخرة فمنها جَنّتها وصرامها، ومتى وعدت من كرم الله جعلت الثّغور تضحك في وجوه الغيب وإنْ أوعدت بعذاب الله جعلت الألسنة ترعد من حمّى القلوب"[30]. فسبحان مسطِّر كلّ لفظ محيي كلّ نبض، جلّ جلاله وارتفع إلى السّماوات العلى كلامه.

سادساً : **قوله تعالى**[31]:﴿ وَٱلَّذِى أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ﴾. نقف الآن أمام آخر نموذج اِقتطفناه من رياض آي القرآن الكريم، واللّفظة التي شدّت اِنتباهنا فيه تعتبر مقصدنا ومرمانا متمثّلة في (**أحوى**) " **فقوله تعالى** :(**فَجَعَلَهُ غُثَآءً أَحْوَى**)، الغثاء ما يقذف به السّيل على جوانب الوادي من الحشيش والنّبات القماس وكذلك الغثّاء بالتّشديد والجمع الأغثّاء... والأحوى الأسود أيّ أنّ النّبات يضرب إلى الحوّة من شدّة الخضرة كالأسود والحوّة... والحوّة سمرة الشّفة يقال رجل أحوى وامرأة حوّاء **وقال أحدهم**:

وغيثٌ من الوسميِّ حوٌّ تلاعه*ثمّ تبطّنته بشيظمٍ صلتان.**

ويجوز أن يكون أحوىٰ صفة لغثاء، والمعنىٰ أنّه صار كذلك بعد خضرته، وقال **أبوعبيدة** فجعله أسود من احتراقه وقدمه والرّطب إذا يبس اِسودّ، وقال **عبد الرّحمن بن زيد**: أخرج المرعىٰ أخضر ثمّ لمّا يبس اِسودّ من اِحتراقه فصار غثاءً تذهب به الرّياح والسُّيول وهو مثل ضربه الله للكفّار لذهاب الدّنيا بعد نضارتها "[32]، مجمل الحديث في هذا الشّأن هو أنّ :" **غثاء** يصبح يابساً هشيماً. **وأحوى** : أسود أو أسمر بعد خضرته "[33]. فإذا تأمّلنا مليّاً وترقّبنا السّياق الذي وردت فيه اللّفظة، ألفيناه يتحدّث عن زوال الدّنيا الدَنيّة، فدلّ لفظ الأحوىٰ في هذا الموضع علىٰ السّواد والاِحتراق. وبهذا اِجتمع مؤشّر اللّفظ علىٰ لونٍ ضمنيٍّ متواري وهو السّواد .

من خلال ما سبق نسجنا تصوّراً عامّاً عن سيميائـيّة اللّون في القرآن الكريم- **الألوان الضِّمنية**- وذلك باستخلاص الدّال والمدلول، فباشتراكهما تُكَوّن لنا العلامة السيميائيّة، وهي الملفوظات التي تُحيلنا إلىٰ المقصد أوالقصد: الدِّهان، باسرة، مدهامتان، قترة، مسفِرة، أحوىٰ،" فكلّها رَمَتْ إلىٰ مدلول واحد وهو اللّون ضمنياً. والسّؤال الذي يطرح نفسه في هذه اللّحظات هو:هل تناسَبَ ذِكر اللّون في القرآن الكريم؟ وهل الألوان التي ذكرت ضمنيّاً هي نفسها التي وردت جليّة؟

لا نستطيع الجزم والقول بعدم التّناسب؛ لأنّ هذا الكتاب كتابٌ معجز والسّؤال الذي طرحناه آنفاً يقودنا إلىٰ إجابة تعجيزيّة، واللّون سواءً أكان ضمنيّاً أم صريحاً فهو سرٌّ من الأسرار الإلهية. هذا التّساؤل يدعونا إلىٰ الإجابة عنه **بالقول**: أنّ الألوان التي كانت جليّة في القرآن من أسود وأبيض وأخضر وأحمر وأصفر وأزرق ذكرت بملفوظها أي دالّها، ولكنّ الألوان التي ذكرت ضمنيّاً هي بمثابة الصّفة التي تقودنا إلىٰ اللّون (دال+ مدلول = علامة). من هنا نكون قد حسمنا ظاهرة التجلّي اللّوني وخفائه في القرآن الكريم، فبما أنّنا نتحدّث عن اللّون ومدلولاته وخفائه وتجلّيه نضفي الآن لمسة من اللّمسات التي تحدو بنا إلىٰ تصوّر عالم الجمال و تسبيح خالقه، ولعلّ السّؤال الذي يتبادر في أذهاننا حاليّاً يجيب عن مقصودنا وهو: هل نجد في القرآن ألفاظاً أخرىٰ توحي إلىٰ اللّون؟ فإجابتنا ستكون في العنصر الموالي .

I. الزّينة / الزّخرف / البهجة : لِنتأمّل مليّاً هذه الألفاظ ونتساءل: ما الذي يتبادر إلى الذهن لدىٰ سماع هذه الألفاظ؟ لا شكّ أنّ كلّ ملفوظ منها ينوِّه لنا بالجمال في أوّل الأمر والجمال يتحقّق بلمسات سحر الألوان، فكلّ من الألفاظ السّابقة إذاً من بين دلالاتها الإحالة إلى الألوان. فالزّينة حِلية لفظيّة مادّية فيها جمال متجدّد تجدّد الحياة، تعددت ألوانه ومدلولاته وهذا ما نلحظه في الآيات الآتي ذكرها :

أوّلا: قوله تعالى[34]:﴿ وَلَقَد زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنيَا بِمَصَـٰبِيحَ وَجَعَلْنَـٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَـٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴾ .

ثانيّا: قوله تعالى[35]:﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَـٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ

ثالثا: قوله تعالى[36]:﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَـٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾.

رابعا: قوله تعالى[37]:﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾.

خامسا: قوله تعالى[38]:﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ .

سادسا: قوله تعالى[39]: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم

مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾.

سابعا: **قوله تعالى**[40]: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾.

تتعالق هذه المشاهد القرآنية بألفاظٍ توحي إلى الجمال والحسن والبهاء والسّحر الفتّان، فالألوان التي تستشفّ باطنيّاً من وراء حجاب هي الجزء الباعث لهذا الجمال الذي نبصره ونتملّى ما فيه في جميع ما حولنا في الأرض، في السّماء، في الزهور والثّمار..."فزينة الأرض كلّ ما يجعلها تبدو جميلة في عين النّاظر إليها، وقد زيّنها الله بالجبال والأودية والحقول والبساتين والأنهار والينابيع. والشّيء إذا كان زينة أحدث السّرور في النّفس وكذلك إذا كان بهيجاً فإنّه لا يعدم إثارة الغبطة والرّاحة. **قال الأصفهاني**:البهجة حسن اللّون وظهور السّرور فيه، **قال عزّ وجل**: ﴿ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾. وقد بهج فهو بهيج. **قال تعالى**: ﴿ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾... وقد إبتهج بكذا أي سرّ به سروراً بأن أثره على وجهه"[41]. إذاً فكلّ ما هو مُبهِجٌ و مزَيّنٌ و مُزَخرف لا يخلو من الألوان، فهذه الألفاظ جزء لا يتجزّأ من الجمال فلقد عملت على تعميق المعنى وترسيخ الصّورة بألوانها، فالبهجة والزّينة والزّخرف إذا نظرنا إليها كدالّ نلفيها توحي بمدلول الجمال الموشى بالألوان.

هنا نلمس **سيميائية اللّون** من خلال **مؤشّرية** كلّ دالّ من المدلولات السّابقة، فهي مرصّعة بألوان ضمنيّة تدرك من خلال اللّفظ كدالّ والسّياق الذي ورد فيه. فعلى سبيل المثال منظر الحدائق البهيجة يبعث في القلب السّرور والحيوية، **لقوله تعالى**[42]:﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ . تأمّل الحدائق البهيجة بألوانها كفيلٌ بتمجيد الصّانع الذي أبدع هذا الجمال العجيب، وإنّ تلوين زهرة واحدة وتنسيقها ليعجز عنه أعظم رجال الفنون من البشر، وإنّ تموّج الألوان وتداخل الورقات في الزّهرة الواحدة ليبدو معجزة تتقاصر دونها عبقريّة

الفنّ القديم والحديث "فضلاً عن معجزة الحياة الناميّة في الشّجر وهو السرّ الأكبر الذي يعجز عن فهمه البشر"[43]. حقاً إنّه سرٌّ يقودنا إلى تسبيح خالق الكون باعث الحياة واللّون، بهذا تتحقّق عوالم فريدة متفرّدة متكاملة في البلاغة والإعجاز .

هكذا انقشعت الغمامة التي لبّدت طريقنا في الوصول إلى مدلولات تلك الدّوال، فكلّ دالّ منها يشي لنا بالألوان الّتي أدركناها من بعد اِستنطاقنا للملفوظات الّتي تناولناها بالدّرس، فتلك الدّوال إذاً خلقت لنا مجالاً لتصوّر مدلولات عالم الجمال المعبّأ بشتى الألـوان .

II. النّور والظّلام :النّور والظّلام لفظان نقيضان سلّطت عليهما الأضواء ليس كلفظين نقيضين فحسب، وإنّما كلونيْـن من الألوان غير الصّريحة الّتي تُكسب دالاً ما دلالة اللّون لفظاً. فهذان اللّفظان يُساقان مساقاً واحداً، فبمجرّد تلفّظنا لكلمة **نور** يتبادر إلى الذّهن نقيضه **الظّلام**. لقد تواتر ذكرهما في الخطاب القرآنيّ عبر آياتٍ مختلفة فهما يمثّلان مشهداً من مشاهد هذا الكون المتجددّة الّتي يلوّنها اللّيل والنّهار، الكواكب والأقمار والظّلال والأضواء. فإذا ذكر **النّور** كدالٍّ تماشت معه مدلولات أخرى: كالإيمان – النّورانية – الخير، الحق، الرّشد الهداية...هذا عن النّور. أمّا عن **الظّلام**: بما أنّه نقيضه فدوالّه تأتي عكس دوالّ النّور وهي: الكفر،الظّلالة الشّر...فالألفاظ اللّيل والنّهار، الأبيض والأسود **متلازمان** حتّى في الخطاب القرآني ونجد هذا في :

قوله تعالى[44]:﴿ لا إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ .

وقوله تعالى[45] :﴿ يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾.

وقوله تعالى[46] :﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ .

وقوله تعالى[47] : ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾.

وقوله تعالى[48]:﴿ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ۚ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ .

فقبل التوجّه للبحث عن دلالتيّ كلّ من **النّور والظّلام** في الآيات السّابقة نقرن توضيحا لتلك الدّلالات بتصوّرنا لها في واقعنا "فكثيراً ما يعمد إلى عنصر التّضاد اللّوني بالمقابلة بين اللّونين الأبيض والأسود ووضع اللّون الأبيض في مواجهة الأسود اِنعكاسا لثنائيّة الصّراع بين النّور والظّلام، وكثيراً ما تكون الغلبة في صالح اللّون الأبيض أو في اِنتصار الأمل"[49]. هذه الدّلالة لها طبعٌ متأصّل اِستَخصل في الإنسان فرُوحُهُ الطّاهرة تسمو إلى النّور والنُّورانية عكس الإنسان الظّال صاحب الأفكار السوداويّة والأعمال السيّئة، إذْ نلفي روحه لاتسموا أصلاً؛ بل توأد بين قدميه في ظلمات باطن الأرض تدنّسها شروره وكفره، وتَرسَّخ في الذِّهن البشريّ أنّ النّور هو البياض "فظهوره يرمز دائماً إلى اِنتصار الخير على الشّر،إنّه النّور الذي يسحق الظّلام ويبشّر بالأمل والتّفاؤل والإشراق، أو لِنقُل أنّه المعادل الموضوعيّ للحياة في جانبها المضيء"[50]. حتى في التّعبير عن صفاء النّفس ونقائها يصبح اللّون الأبيض هو الإطار الذي يحتضنها ويلوّنها بألوانه الخاصّة **لقوله تعالى**[51]:﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾. ذلك لأنّ الله أكرمهم بنور

من عنده لأنّهم اِهتدوا بنور الإيمان في الدّنيا "فعن **قتادة في قوله تعالى** : ﴿ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾: ذكر لنا **نبيّ الله أنّه كان يقول**:مِن المؤمنين مَنْ يُضيءُ نوره من المدينة إلى عدن أَبين بصنعاء ودون ذلك حتى إنّ مِن المؤمنين مَنْ لا يُضيءُ نوره إلاّ موضع قدميّه، فالنّور ليس واحداً فكلٌّ ينال حسب ما منحه **الله تبارك وتعالى** من هذا النّور"[52].

فكلمة **النّور** وِفْقَ السّياق الذي وردت فيه دلّت على الإيمان والفوز بالجنّة نتيجة العمل الصّالح في الدّنيا؛ أمّا في **سورة النّور** الآية (35) **قوله تعالى**: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾. يستلزم علينا بمجرد سماع كلمة **نور** أنْ نقرنها بالبياض المستغرق في النّورانية "وهذا المقام يشبه من بعض الوجوه، ماذُكِر في سورة النّور من ضرب مثل المؤمن وما جعل الله في قلبه من الهدى. النّور بالمصباح في الزّجاجة التي كأنّها كوكب دُريّ وهي قلب المؤمن المفطور على الإيمان، واِستمداده من الشّريعة الخالصة الصّافية الواصلة إليه من غير كدر ولا تخليط"[53]. وهذا مثل المؤمن وما زرع **الله** في قلبه من الهدي والنّور وبيان هذا النّور الإلهي والهدي السّماوي والضّياء الرّباني. هذان مثالان سُقناهما من لدن القرآن الكريم ومن بين مروجه المختلفة ودلّ فيهما لفظ النّور دلالة واضحة على الإيمان والهدي والضّياء.(النّور / الإيمان) .

وأمّا في **سورة التّوبة** الآية(32):﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾. "فمثل الكفّار من المشركين، وأهل الكتاب الذين جعلوا لله اِبناً واتّخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله كمثل من يريد أنْ يطفئ شعاع الشّمس أو نور القمر بفمه ولا سبيل إلى ذلك، فهم يريدون أنْ يطفئوا نور الإسلام وشرع **محمّد** 'صلّى الله عليه وسلّم' بأفواههم الحقيرة بمجرّد جدالهم وافترائهم، وهو النّور الذي جعله الله تعالى لخلقه

ضياء، ويأبى الله إلاّ أنْ يُعليه ويرفع شأنه ولو كره الكافرون ذلك"[54]. وهنا إطفاء النّور أيّ إيراد الإظلام، ومنه نشر الضّلالة والغيِّ والفساد والجهل بدل الهداية ونور الإسلام، "وهذا في تصوير معنى الفساد الذي تنطوي عليه القلوب الواغرة، وثمَّ لون آخر في صفِّه هذا المعنى وهو اللّون المظلم الذي تنصبغ به النّية السّوداء"[55]. وقد أُظهر في تصوير الكلام لفظة يطفئوا وهي تحيل إلى فتح ثغرات يتسلّل منها الظّلام في قلوب العباد .

نأتي الآن بأمثلة أخرى تلازم فيها النّور والظّلام، وهذا على سبيل التّدليل وإيضاح الفكرة وإيصالها إلى ذهن القارئ، وهو ما نلمسه في الآية(257) من **سورة البقرة** "وفيها يُخبر تعالى أنّه يهدي من اتّبع رضوانه سبل السّلام فيخرج عباده المؤمنين من ظلمات الكفر والشّك والرّيب إلى نور الحقّ الواضح الجليّ المبين السّهل المنير، وأنّ الكافرين إنّما أولياؤهم الشّياطين يزيّنون لهم ما هم فيه من الجهالات والضّلالات ويخرجونهم ويحيدون بهم عن طريق الحقّ إلى الكفر والإفك، والملاحظ أنّ الآية جاء فيها لفظ النّور مفرداً والظُّلمات جمعاً، ذلك أنَّ الحق واحد والكفر أجناس كثيرة وكلّها باطلة"[56]. والصّراط يهدي بنا إلى النّور أو هو النّور في حدّ ذاته؛ لأنّ من يتّبعه لا يظلّ سواء السّبيل، و**النّور** و**الظّلام** جاءَا متلازمين في هذه الآية ولمْ يخرجا عن الدّلالة المعتادة لهما، وهي **الهدي** في مقابل **الضّلالة**؛ أمّا في **قوله تعالى**[57]:﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ﴾.

لنتملّى مليّاً حيثيات هذه الآية وملفوظاتها التي تقودنا إلى الإستنتاج الآتي: الأعمى/ الظّلمات، النّور/ البصير؛ فبمجرّد سماعنا لكلمة **أعمى** تحيلنا دلالتها إلى **الإظلام** و النّظرة السّوداويّة المعتمة التي لا يخرقها البياض، وكذلك كلمة **البصير** تحيلنا إلى **النّور**، **فالمفارقة بينهما** بادية للعيان أي بين الأعمى والبصير، والنّور والظلام، وما شدّ إنتباهنا **ورود الظّلمات جمعاً** و **النّور مفرداً** و هذا لحكمة الله سبحانه . أمّا في **قوله تعالى**[58]: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ

إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾. لاشك أنّنا لمسنا **تلازم اللّفظين النّور والظّلام** في هذه الآية الكريمة، والسّياق الذي وردت فيه اللّفظتان نفهم من خلاله مدلوليهما، وهو أنّ الرّسالة **المحمّدية** بأمرٍ من **الله** لازمتها دلالة النّور الّذي يسطع على الكون ويُضيء مسارب الحياة ومسالكها؛ لكنّ الظُّلمات فهي دعوة القائلين بأنّ **الله** هو المسيح عيسى بن مريم فالظّلام هنا دلّ على الغيّ والكُفر والضّلالة. وممّا نخلص إليه ههنا أنّ لفظتي النّور والظّلام أخذتا أبعاداً دلاليّة.

فبعد صولاننا وجولاننا عبر مروج حدائق القرآن وإكتشافنا لمسارب الألوان فيها، بل وبعد شمّ عبيرها وتنسّمنا لنسمات قرآنية فواحة من لدنها ردّت إلينا الرّوح وأيقظت فينا حبّ الإطّلاع والتّقصي والبحث لا نزعم ولا نجزم بالقول أنّنا أنهينا دراستنا شرحاً وتعقيباً وتنقيباً لأنّ كلّ عملٍ فنّي ولو وصل إلى مرحلة الإكتمال إلاّ أنّه يبقى ناقصاً يحتاج لمن يتدارك ذلك النّقص ويعبّئه، فها نحن نخلص إلى مجموعة من النّتائج:

*تعتبر سيميائيّة اللّون-**اللّون الضّمني**- إنفتاحاً لدراسات أخرى حديثة، وهو من الأطروحات الجديدة القابلة للدّراسة والتّعميق لإختلاف **الرّؤى اللّونية** بين العرب والغرب.

*توقّفت دراستنا في بادىء الأمر على إستخلاص أصداف من الكلمات المنتقاة من لدن القرآن ثمّ قمنا بعد ذلك بفتح جوهرها وإجلاء لؤلئها ككلمة: **مدهامّتان، الدّهان، أحوى**...إلى غير ذلك من الكلمات الّتي تحمل مدلولاً سيميائيّاً، كما سُلّطت النّظرة **السّيميائية** أيضاً على ألفاظ توحي إلى **الجمال** الّذي يقودنا بدوره إلى الألوان **كالبهجة والزّينة والزّخرف**...

*تنوّعت **الدّلالات اللّونية** من **إيجابيّة** إلى **سلبيّة** تبعاً للموضِع والسّياق الذي وردت فيه واكتنفته، أمّا عن **النّور والظّلام** فكلّ منهما إحتضن دلالته الأصلية التي يتفرّد بها؛ **فالنّور** له دلالته

الإيجابيّة و**الظّلام** له دلالته السّلبية وكلتاهما تتفرّع بدورها إلى مدلولات كــ: الخير،السِّلم،العلم، والشرّ،الظّلم،الجهل إلى غير ذلك من المدلولات اللَّسيقة باللّفظين بداهةً مستشفّة من قبيل الإنسان فطرةً .

*أمّا بالنسبة للألوان في القرآن عامّة فهي سرّ من أسرار **إعجازه**. فلا ينبغي أنْ نستهجن لوناً ونذمّه مهما كان؛ لأنّه من صنع المبدع الفاطر. **فالإعجاز اللّوني** في القرآن من الأسرار التي مهما بحثنا فيها فإنّها تبقى من مفاتيح الغيب الّتي لا يعلمها إلاّ الله تعالى .

*تضَمّن القرآن الكريم حشداً من الآيات القرآنيّة الحُبلى بألفاظ توحي إلى **الجمال** الذي يقودنا إلى **الألوان** وهنا تأبى الأقلام الكلام وتهدي السّلام وحسن الختام، وتترك المجال لغيرها بأن يقول ويزيد، ويفصّل ويجدّد فعسى الله أنْ ينعم علينا بالفوز بأعظم الثّواب فتبارك الله عالم الغيب وكاشف الرّيب ومعين العبد الضّعيف .

مراجع البحث وإحالاته:

1 محمد الصالح الصديق . البيان في علوم القرآن . المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر . 1994م. ص 165 .

2 نزيهة لطماني . رسالة ماجستير تحت عنوان: الألوان في القرآن الكريم . جامعة الجزائر 2002م. ص 05 .

3 عبده بدوي . السود والحضارة العربية.دط.دم. 2001م. ص 26 .

4 أحمد مختار عمر. اللّغة و اللّون . ط2 . كلية دار العلوم . جامعة القاهرة. 1997م. ص 136 .

5 نفسه. ص 186 .

6 نفسه. ص 158 .

7 نفسه. ص 154 .

8 فريق من الأخصائيين . جسمك كله عجائب . دار الحضارة . بئر توتة الجزائر.دت . ص 60 .

9 محمد صالح الصديق . البيان في علوم القرآن . ص 154 .

10 محمد نظيف . ماهي السيميولوجيا .ط1 . إفريقيا الشرق . الدار البيضاء. 1994م. ص 09 .

11 مارسيلو داسكال . الإتجاهات السيميولوجية المعاصرة . ترجمة مجموعة من الأساتذة .دط. إفريقيا الشرق. الدار البيضاء 1987م. ص 15

12 ابن مالك رشيد . رسالة دكتوراه. السيميائية بين النظرية والتطبيق(نسخة الكترونية) . ص 41 .

13 نفسه . ص 42 .

14 سورة الحجر. الآية 75 .

15 سورة النحل . الآية 10 .

16 عبد المالك مرتاض . تحليل الخطاب السردي. ديوان المطبوعات الجامعية بن عكنون . الجزائر .1995م. ص 297

17 سورة الرحمن. الآية 37 .

18 القرطبي. تفسير القرطبي . ط2. دار الشّعب . القاهرة.1879م. ج17 . ص 173 .

19 سورة الرحمن. الآية 64 .

20 ابن كثير اسماعيل بن عمر الدمشقي أبو الفداء . تفسير ابن كثير . دار الفكر . بيروت . 1401 ه. ج1 . ص 09

21 القرطبي . تفسير القرطبي . ج17 .ص 185 .

* السِنَّور : لبوسٌ من قِدٍ كالدِّرع و سميت قرىٰ العراق سواداً لكثرة خضرتها .

22 سورة القيامة . الآية 24 .

23 ابن كثير . تفسير ابن كثير . ج4 . ص 451 .

24 سورة عبس . الآية 38 .

25 الطبري . تفسير الطبري . دط. دار الفكر . بيروت . 1405ه. ج30 . ص 62 .

26 سورة آل عمران . الآية 107 .

27 سورة عبس . الآية 40 .

28 القرطبي . تفسير القرطبي . ج19 . ص 226 .

29 نفسه .ج1 . ص 793 .

30 مصطفىٰ صادق الرّافعي . كتاب إعجاز القرآن والبلاغة النّبوية . دار الكتاب . بيروت . لبنان .دت . ص:30.

31 سورة الأعلىٰ . الآية 4 .

32 القرطبي . تفسير القرطبي . ج20 . ص 17 .

33 حسنين مخلوف . كلمات القرآن تفسير و بيان . ص 591 .

34 سورة الملك .الآية 05 .

35 سورة يونس . الآية 24 .

36 سورة الأعراف .الآية 32 .

37 سورة يونس .الآية 88 .

38 سورة الكهف .الآية 07 .

39 سورة الحج .الآية 05 .

40 سورة ق .الآية 07 .

41 حامد صادق القنيبي . الكون والإنسان في التصوير الإسلامي . دط. 1980م . ص 106 .

42 سورة النمل . الآية 60 .

43 حامد صادق القنيبي . الكون والإنسان في التصوير الإسلامي. ص 106 .

44 سورة البقرة .الآية 256. 257 .

45 سورة صف . الآية 08 .

46 سورة الحديد .الآية 12 .

47 سورة النور .الآية 35 .

48 سورة النور .الآية 40 .

49 فوزي عيسى . تجليات شعرية . قراءة في الشعر المعاصر . ص 192 .

50 نفسه . ص 192 .

51 سورة الحديد .الآية 12 .

52 عبد الهادي عبد الله عطية . في نور القرآن عن تفسيره . دار المعرفة الجامعية .1999م . الكتاب 12. ص:169.

53 نفسه . ص 171 .

54 نفسه . ص 46 .

55 مصطفى صادق الرّافعي . إعجاز القرآن و البلاغة النبوية . ص 329 .

56 غسان حمدون . تفسير من نسمات القرآن . تقديم: جميل غازي . عبد الله علوان . دار سحنون. تونس . المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 12/ 07/ 1406 . ص 56 .

57 سورة فاطر. الآيات 19. 20 . 21 .

58 سورة المائدة . الآيات 15. 16 . 17